حاجة الحضارة العالمية للرؤية الإسلامية

الدكتور أحمدعلي الإمام

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

حاجة الحضارة العالمية للرؤية الإسلامية

الدكتور أحمد علي الإمام

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

حاجة الحضارة العالمية للرؤية الإسلامية

الدكتور أحمد علي الإمام[*]

> لم يبح الإسلام التعايش مع (الغير) فحسب، بل أصل له وحث عليه باعتباره وسيلة للتواصل مع الأمم الأخرى.. إن استثمار الوسائل الحديثة للتخاطب وسرعة الاتصال للتعريف بقيم الإسلام للأمم التي تجهل حقيقته، سوف يؤدي إلى حماية الإنسانية من المنزلق الذي يوشك أن يبتلعها، وتأمين مستقبلها.

نحن أمة يشرفها انتماؤها إلى دينها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:44).. وتتميز تاريخيًا بأن إيمانها هو الذي يحركها في مختلف الأزمنة والعصور للعمل على هدي أصول الشريعة الإسلامية، و(تراثها الداعي) لاستثمار الوقت الحاضر، والتخطيط للمستقبل، وإعداد العدة لأداء الدور الحضاري المطلوب للأمة المسلمة في عالم الغد.

ولعل من أهم مقومات العمل وشروط النهوض التي تمتلكها الأمة، في إطار التعرف على الذات، هو أن نستحضر أننا نمثل أمة الرسالة العالمية الخالدة الخاتمة، وأن ننطلق في حوارنا مع غيرنا من ثقتنا بأنفسنا واعتزازنا بما لدينا، فإن الإنسان تسيره أفكاره عن نفسه، أما المؤمن فحسبه الحديث القدسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**» [1] حيث تسيِّر أفكاره ثقته بربه. وعليه فيجب علينا دون ضنٍّ أو منٍّ أن نقود أمتنا للثقة

(*) أكاديمي.. ومستشار لشؤون التأصيل (السودان).

(1) متفق عليه.

بالنفس والعزة بنعمة الهداية[1]، وأننا نمتلك (الإمكان الحضاري)، وأهم ما في ذلك كله ما خصها الله تعالى به من النص السماوي السليم الموثوق المحفوظ، حيث جاءت وثاقة الإسلام في حفظ أصوله، فهو كتاب الله المعصوم المحفوظ بحفظ الله تعالى أبد الدهر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:9).

فالقرآن محفوظ كما أنزل في صدور المؤمنين، موثق في المصاحف، سليم من التعارض والتناقض، وذلك ما تأكد خلال القرون من سلامة القرآن من الوقوع في تبني ما كان سائدًا أوان نزوله من نظريات وأفكار، وسلامته كذلك من تناقض أحكامه وأخباره: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:82).

وكذلك الأخذ من معين السنة المطهرة مما صح من سنة نبينا عليه الصلاة والسلام وهديه وصحابته في فهم القرآن، وما تأصل من منهج علمي ملتزم في مناهج تفسير القرآن العظيم، وما تضمنته نصوصه المعصومة من بُشْريات المستقبل، من ظهور الإسلام وانتشاره وسيادة أحكامه بالانتقال الطوعي والاختياري أساسًا، ثم بإزاحة العوائق من طريقه جهادًا في سبيل الله.

لقد خصّ الله تعالى الإسلام دون سائر الديانات الأخرى بعالمية هذه الرسالة، وختمها للرسالات، وعمومها، وخلودها، وهي حقيقة مقررة في أصول ديننا مما نتلو من كتاب ربنا ونتبع من سنة نبينا الصحيحة، وهما أصل الأصول التي إليها المرجع، وعلى ذلك يبنى الإجماع وأصول الاجتهاد الأخرى.

والمسلم يؤمن حقًا أن المستقبل لهذا الدين، ولهذه الأمة، حيث يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ

(1) اقتباس من كلمة ألقيتها في الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، طهران، 17-19 محرم1420هـ/ 3-5مايو 1999م.

مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾(النور:55). وهو وعد الله تعالى بنصر عباده المؤمنين وتأمينهم والتمكين لدينهم في امتداد الإسلام وانتشاره وظهوره على الأديان كلها، وما ينتظر الأمة من تقدم حضاري ومستقبل تنموي، بل إن المسلمين وهم يواجهون الحصار والفتنة في الفترة المكية –كما يواجهها المسلمون اليوم– كانوا على يقين من عالمية الرسالة، إذ يتلون: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان:1)، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158)، وعلينا الاقتداء بهم في هذا اليقين شريطة أن نجمع بين اليقين والعمل.

وأما ختمها للرسالات فبما قامت به الحجة على العالمين مما نص عليه القرآن: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ (الأحزاب:40)، وهدى إليه الرسول ﷺ، ومن ذلك حديثه ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ**»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ**» [1]..

ويؤيد ذلك بشرى الأنبياء السابقين به ﷺ نبيًا خاتمًا..

أسباب ضعف الأمة وعدم فاعليتها

كل نهضة تحتاج إلى إعداد وتحضير وتخطيط مستقبلي، وخاصة النهضة الحضارية، التي تستلزم بدءًا تعريف الأمة على المعيقات ومواطن الخلل، وأبرزها ولا شك ضعف الإيمان وما اعترى العقيدة من فساد، بحيث لم يعد القرآن يؤثر في أجهزة

(1) أخرجه مسلم.

الاستقبال من القلوب، التي تغلفت بحب الشهوات وران عليها واعتلاها الدخن، مع عدم الالتزام بأحكام الشريعة﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:50).. وكثر فساد العمل، حيث فقد روحه، وخالف سنة الاقتداء، فلا صواب في أدائه ولا إخلاص.

وقد أدت سيادة الأمية والجهالة والتقليد إلى تفاقم ظواهر الفقر والصراعات السياسية والمناحرات القبلية.. ويستوي الجهلاء والمتعلمون تعليمًا غير راشد في إدارة هذا الصراع وتأجيج نيرانه.

ويعاني عالمنا اليوم من تخلف الأنظمة الحاكمة والمجتمعات، إذ: «**كيفما تكونوا يول عليكم**»[1]، ومن آثار عصور التدهور الفكري والانحطاط الثقافي والهزيمة الحضارية لأجيال متلاحقة، وما يتبع ذلك عادة من التبعية ومحاكاة المغلوب للغالب، ساعد على ذلك انفصال السلطان عن القرآن، واحتراب السيف والقلم.

ومن هذا الإشكال تواترت المشكلات، مما أدى لسقوط مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمجتمع الراشد يمثل أمة الخير المكملة لسلطان الدولة.. ومن ذلك كذلك استبداد الحكام وغياب الشورى والرقابة وتبادل الرأي والركون إلى التقليد، وحصر الدين في الفروض العينية، والتخلي عن فروض الكفايات الكاملة لسد حاجات المجتمع في جميع المجالات، بحيث يكون الاعتماد على النفس في الصنائع وإعداد القوة اللازمة استجابة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم ... ﴾ (الأنفال:60). وفاقم الوضع سوءًا غياب الرقابة الشعبية إلا من جهود مقدرة – على قلتها– من جانب العلماء والوعاظ والقصاص.

(1) أخرجه الطبراني عن الحسن البصري عن عمر وكعب الأحبار، وقال موقوف .

أضف إلى ذلك التخلف العلمي والتقني والجمالي والفني، ولا يزال الأمر على ما تركنا عليه الغزو الأجنبي ووكلاؤه.

وقد أصبح الجهل بالسنن الكونية التي تحكم سير الإنسان سمة مؤسسات العالم الإسلامي ردحًا من الزمن، حتى استحثنا سوء الواقع للأخذ من معين الغرب، واعتماد الوافد أصلاً، وتغريب الأصيل (الفلسفة التلفيقية).

وفي ظل غياب المنهج تُنتقص المكرمات وتتعاظم المثالب، وأبرزها تفاعلاً الآتي:

أ- مشكلة الاستلاب الحضاري وتغريب النهج الأصيل.

ب- تعطل الإبداع، وضعف الخيال، واختلال المعايير وضوابط الاختيار والانتقاء.

ج- نفي الحاضر، والعيش في الماضي بفهم عاجز عن التجديد والاجتهاد.

د- غياب (مفهوم الأمة)، فالحضارة نتاج أمة لا شعب.

ولغياب هذه الرؤية، مع جملة المشاكل الأخرى، فإن المتاح من الحضارة العالمية لا يمكن أن يكون بديلاً لما وصى به الإسلام لخير الإنسان، ولا يقدم حلاً مرضيًا تسعد به الإنسانية.

ولا سبيل للإبداع والتفوق الحضاري بدون الخروج من الأزمة، التي تسود حياة الناس، ويلاحظها من يؤرخ لتاريخ الحضارات.

أزمة الحضارة العالمية وحاجتها للرؤية الإسلامية

تعاني الحضارة الغربية اليوم إفلاسًا في عالم القيم، وقد ساهمت عدة عوامل مشتركة في انحطاط سلوكيات الغرب حتى تحفظ بعض المهتمين عن تسمية الحضارة الغربية واكتفوا باسم المدنية الغربية، لأن الحضارة قيم ومعانٍ تتأتى في أنماط السلوك

والتعامل. يقول (ول ديورانت):

«إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وحينئذ لا تنفك الحواجز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها» (1).. وصدق الله العظيم حيث امتن على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فكان القرآن سباقًا في لفت النظر إلى أهمية الأمن في حياة المجتمع قبل أربعة عشر قرنًا.

وأصبح واقع العالم اليوم يعكس همجية وحيوانية، لأن الناس فيه ابتعدوا عن أصول دينهم، وهجروا تعاليم أنبيائهم، بل حدثت المواجهة والمعاداة والخروج، وغاب عن نظرهم تذكر الله واستحضار حسابه في الآخرة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (المطففين:4-6).

وقد سادت مخالفتهم للفطرة السليمة، اعتقادًا وسلوكًا، وشاعت بينهم الفواحش، بل صار السفهاء على كثرتهم يجاهرون بممارساتهم غير الأخلاقية، ويطالبون بكيانات تنظمهم وتحميهم.. والقانون هنالك يبيح هذه الفوضى بدعوى الحريات الشخصية.

وأضحى فساد الفطرة وتلوثها، وما ران عليها، طابع الحياة الذي لا يستغرب في تلك المجتمعات ولا يستهجن، واستشرى ذلك الفساد بصورة صعُب معها أن يقوّم الوالد أبناءه من الانحراف والاعوجاج، وانتقلت العدوى إلى بعض مجتمعاتنا، وأول الغيث قطر.

واعتقد الغرب أن سر نجاحهم يعود إلى اتباعهم المناهج المناهضة لتعاليم الدين

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمود، ط دار الجيل، بيروت، 1408هـ/1988م، 3/1، المقدمة.

باسم العلمانية واستلابها حق التشريع، والخلاق العليم أعلم بما يصلح خلقه، قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:140).. ومما يذكر مؤخرًا أن أحد المجالس التشريعية (البرلمان) في الدول الأسكندنافية قد أباح زواج الأخ من أخته، وصادق على هذه الإباحة مطلقًا، ثم ما لبث وأن تدخل علماء الأحياء وقدموا دراساتهم الموثقة علميًا وتجاربهم التطبيقية بثبوت الإضرار وتوارث الصفات الوراثية الرخوة وضعف (الجينات)، مما دعا ذلك المجلس لمراجعة حكمه وسحب تشريعه:﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة:50).

وتستشري الآن خطورة (العولمة)، ولعل المفردة الأنسب والأصح لهذه العملية هي الكوكبة «Globalization» أو (الأمْرَكَة)، التي تسعى بالقوة لتجعل التفرد والخصوصية أمرًا منكرًا يُقاوم بكل سبيل، وترمي لتذويب الحدود الثقافية والسياسية وزيادة التشابك والتماثل بين المجتمعات، وزيادة درجة التفاعل بين شعوب العالم المختلفة. وهي كذلك محاولة لإعادة صياغة هوية سكان العالم وفق رؤية (علمانية) ليست لديها مرجعية تحكم إطار نشاط إنسانها.. وقد دلت مقررات مؤتمر الأسرة والسكان وبرنامج الصحة الإنجابية على مدى الهاوية السحيقة التي يريدون أن يبلغها العالم.. وبرهنت إحصاءات الغرب على الانخفاض المتواصل لنسب الزيادة في السكان نتيجة لتفكك الأسر والفوضى الإباحية، في حين أن العالم الإسلامي متماسك متنام، لذا يسعون إلى أن تعم البلوى.

وتنتشر آثار ظاهرة الكوكبة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، خاصة كوجه جديد للاستعمار. فالغرب يستغل وسائل الاتصال الحديثة بالصوت والصورة والسفر والسياحة لإفساد العالم أخلاقيًا.

وظاهرة (العولمة)، تمنح الغرب فرصًا استثمارية بما يملكه من قوة شرائية ومقدرات

اقتصادية وتأثير ثقافي، ولكنها قوة مرحلية، لأنها في المدى الطويل تشكل تحديات عليهم، لخوفهم من حركة الأفكار القوية المؤثرة، وحسبهم أن يعتبروا بتجربة غزو التتار للعالم الإسلامي، الذين كان لهم رهان القوة المادية، ولكنهم تأثروا بالثقافة الإسلامية، وصاروا جزءًا في الكيان الإسلامي نفسه. ولأول مرة بدأ الغرب في وضع ضوابط للهجرة، كما حدث في فرنسا وبريطانيا وألمانيا، خوفًا من هذا التأثير عليهم، خاصة من المهاجرين العرب والأتراك وسائر الآسيويين.

وانتبه الغرب إلى خطورة أن لا يدركوا سرعة الآلة، وتخوفوا من أن ترتد العولمة عليهم بامتلاك العالم الإسلامي لهذه القوة بما تمنح الوسائل المعاصرة من قدرات، حيث أتاحت الشبكة العابرة للمعلومات (الإنترنت) الكثير من الفرص لدخول مواد إسلامية غنية قوية قادرة على التأثير، لا سيما وأن الغرب يعيش فراغًا روحيًا يمكن للإسلام أن يملأه، خاصة أن لدى الإنسان في الغرب حرية في تبني الأفكار، ورغبة في المطالعة، وقدرة مادية على امتلاك هذه الآلات والوسائل. ثم صارت الفضائيات العربية والإسلامية متاحة للمقيمين بالغرب، من عرب ومسلمين، تعينهم على الارتباط الثقافي بأوطانهم حتى لا يذوبوا في عمليات العولمة أو (الأَمْرَكَة).. ولو كانت وفق منهج يتمتع بقوة الدليل وعرض الأفكار، لأتاحت لغير المسلمين التأثر بها، اعتمادًا على حرية الأفكار وصلاحها لدى المتلقي.

ولعلنا نعود من جديد إلى مفهوم الأمة من بعد تجاربنا نحن مع الحال القُطْرية والدولية، وبتأثير من الغرب نفسه، حيث نجد أوروبا تتجمع وتتكتل وتتحد اقتصاديًا، لكنها تتشرذم ثقافيًا وإثنيًا من جهة أخرى، كما في يوغسلافيا، فتنقسم إلى دويلات.. وها هي اسكتلندا بعد ثلاثمائة وخمسين سنة ضمن المملكة المتحدة تفكر

في الاستقلال، وهكذا ويلز وأيرلنده الشمالية، مع المساعي الجارية حاليًا من أجل تجزئة أسبانيا إلى ثلاث دول.

يقول الأستاذ رجاء جارودي -بعد أن هداه الله تعالى للإسلام- يصف حال الغرب: «إن الثقافة المدعية المغرورة، التي تعتمد عليها هذه الحضارة، ترى حينًا حصر الحياة في الضرورة والصدفة، كما يزعم أحد علماء الأحياء، وترى حينًا جعلها عاطفة جوفاء لا طائل تحتها، كما كتب أحد الفلاسفة، وترى حينًا نسبتها إلى اللامعقول، كما وصف أحد الروائيين، ولعل الإسفاف بلغ منتهاه فيما أفاضت الصحف ردحًا من الزمن عن موت الإله! وموت الإنسان، وموت كل شيء، كما يردد دعاة العدم والمتنبئون به...!!

والثقافة المادية التي تحتضنها تقوم على أربعة مبادئ زجت بنا -بعد خمسة قرون مجموعة- إلى طريق مسدود، وإذا استمررنا فيه فسينتحر العالم بأسره! إن هذه المبادئ الأربعة هي:

1- الفصل بين العلم والحكمة، أي الفصل بين الوسائل والغايات، يعني أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها، فليس وراءها حياة أخرى.

2- إخضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص ومقدارها المادي، مع استبعاد كل أثارة للحب والإيمان والمعاني الروحية.

3- الفردية أو الأنانية التي تجعل امرأً ما أو جماعة ما المحور والمقياس لكل شيء، وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنًا مؤقتًا بين الأطماع المتنافسة.

4- إنكار التسامي، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتاهات المفروضة والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على (الكم) وتستبعد الخلق والحرية والأمل.. يقول رجاء جارودي: إن الثقافة الأوروبية المعاصرة تنبثق من أصل مزدوج، من التراث

اليوناني-الروماني، واليهودي-المسيحي، وقد أغفلت عن عمد التراث العربي الإسلامي.

ويضيف جارودي: «لن أتحدث هنا عن الإسلام بصفة عامة، ولا حتى إسهامه -المجحود- في الحضارة الإنسانية، إنما أتحدث عن الإمكانات الجديدة لتوسعه وانتشاره اليوم في عالمنا الغربي، وعن الأسباب المتصلة بروح العقيدة الإسلامية ذاتها، التي أتاحت مثل هذه الإمكانات.

ويقول: «إن نهضة الغرب لم تبدأ في إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية الرومانية! بل بدأت في أسبانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية! لكن هذه النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية والثقافة الإسلامية سوى منهجها التجريبي (تقنياتها)، وتركت جانب الإيمان الذي يوجهها نحو الله ويسخرها لخدمة البشر...».

ويقول الشيخ مُحَمَّد الغزالي -رحمه الله- في وصف جارودي معقبًا على الاقتباس السابق: «إن الرجل اعتنق الإسلام بعدما أحس إفلاس الحضارة الغربية واستوحش من خوائها الروحي، وشرودها الفكري، وبعدما درس الإسلام دراسة خبير بالأديان والفلسفات، عارف بالحضارات البشرية وأسرار ازدهارها وانهيارها... »[1].

وكيما يحدث ذلك النهوض الحضاري، لا بد من أن تنهض شروط وتنضج ظروف وتؤمن إمكانيات لنهضة شاملة، يتحقق فيها التوافق والتكامل بين المعاني والمباني، والتآخي بين الفرد والمجتمع.

يقول صاحب كتاب روح الحضارة الإسلامية: «امتازت حضارة الإسلام

(1) انظر محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ط1، 1415هـ/1995م، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص47-50.

بالانسجام والأمن، وليس ذلك مقصورًا على انسجام وأمن اجتماعيين خارجيين تأتلف بهما العناصر والطبقات، وتتقى بهما ويلات الحروب الاجتماعية، ولكن الانسجام والأمن الذين امتازت بهما الحضارة الإسلامية، يبتدئان انسجامًا وأمنًا داخليين وفرديين تأتلف فيهما المدارك الإنسانية وتتقى بهما ويلات داخل النفس الإنسانية، وهي ويلات الحيرة والاضطراب وتنازع الأفكار والعواطف، وحرب بين المعقولات والعقائد، وتقسيم بين الروحانيات والماديات، ومقتضيات المصالح وواجبات الأخلاق»[(1)].

شروط النهضة

ويستلزم إحداث النهضة توفر عدة مقومات تبدأ أساسًا بسلامة العقيدة وتحرير الإرادة وإخلاص العمل وتجويده وإتقانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء:19)، حيث يصبح الالتزام بأحكام الشريعة سلوكًا متبعًا ونهج مجتمع ودولة: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية:18).

وقد كان أول ما نزل من القرآن الكريم قوله عز وجل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:1)، ومنه نأخذ أول أمر يستوجب نشر العلم بين العامة ومحو الأمية والجهل والخرافة; فكتابنا هو كتاب العلم وافتتاحه.

والحمد لله إذ نرى اليوم اتجاهًا في الغرب جديدًا يسعى للإنصاف وتقدير الجميل كما في خطابات رسمية ومحاضرات علمية لولي العهد البريطاني.. وهذا وزير خارجية بريطانية «روبن كوك»، الذي أقر أن أساس نهضتهم لم تكن الحضارة الإغريقية واليونانية

(1) الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، روح الحضارة الإسلامية، ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1992م، ص22-23.

فحسب، بل كان لحضارة الإسلام حظ وافر في ذلك، حيث قال الوزير في خطاب عام له يوم 1998/10/8م في لندن: «إن جذور حضارتنا ليست نابعة من أصول إغريقية أو يونانية فقط، بل من أصول إسلامية أيضًا، فلقد أرسى الأسس الثقافية لقطاعات واسعة من الحضارة الغربية.. إن الدِّين الذي تدين به ثقافتنا للإسلام هو أمر يحسن بنا تذكره ونحن نطور علاقاتنا بالعالم الإسلامي، لأننا كلينا قد قطعنا شوطًا بعيدًا في ابتعاد أحدنا عن الآخر، وتركنا لسوء الفهم ولانعدام الثقة أن تزداد بين الغرب والإسلام» [1].

إن الإسلام هو دين الرحمة والتسامح والعدل والإحسان، لهذا يقبل على اعتناقه علماء ومفكرون وعامة.. ولم يبح الإسلام التعايش مع (الغير) فحسب، بل أصّل له وحث عليه باعتباره وسيلة للتواصل مع الأمم الأخرى، يقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (النحل:125).

وتعتبر منطقة العالم الإسلامي هي أغنى بقاع العالم من حيث الموارد والإمكانيات الطبيعية، وقد حرص الحكم الأجنبي أن تظل هذه المنطقة مستودعًا للمواد الخام يمدها بما تحتاجه، وكذلك سوقًا لتصريف منتجاته المصنعة، فلم تتم الاستفادة القصوى من الإمكانات الطبيعية الزاخرة في الوسط الإسلامي، وأمرنا هنا كائن -إن شاء الله- إلى ما هو أكثر تحقيقًا للرخاء والنماء، وفي ذلك حديث الرسول ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا**»[2]، وقد صدقه علماء الجيولوجيا والبيئة المحدثين بعد دراسة طبقات الأرض، وتغيرات المناخ في العالم، وأكدته تقارير أجهزة الغرب الاستراتيجية، التي تتحدث عن إمكانية قيادة منطقة العالم الإسلامي للتنمية

(1) الندوة الإسلامية للحوار بين الحضارات، طهران، 17-19محرم 1420هـ . /3 - 5مايو1999م، ص37.
(2) أخرجه الحاكم.

والعمران خلال القرن القادم.

فقد أكدت هذه التقارير، الناجمة عن دراسات موضوعية وبحث مستمر، أن ما يملكه الإسلام، ومن ثم المسلمون، من مقومات البقاء والاستمرار والظهور والتمكين، أمر يقبله العقل وسنن الحياة في الكون، وتدل عليه النصوص القطعية الثبوت والدلالة.

وتتطلب حماية النهضة توفير أسباب القوة المادية، كما تستوجب إعداد العدة اللازمة لذلك بأوسع دلالات الآية﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ... ﴾ (الأنفال:60)، وامتلاك القوة المناسبة والمكافئة، وإتقان العمل وتجويده، والإحسان في إدارة الأعمال والإصلاح.

كما تستوجب كذلك العمل على الاستقرار السياسي والأمني للأمة المسلمة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتزام العدل والإحسان والشورى والحرية: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»[1].

ويتطلب الأمر كذلك أن نضع نصب أعيننا حسن الاقتداء بتاريخ الإسلام الدال على عظمة النماذج التطبيقية للسلف الصالح، فإن صلاح حاضرنا لا يكون إلا على منهاجهم، كما قال الإمام مالك رحمه الله: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وأول الواجبات رعاية فقه الأولويات، وحسن ترتيب الواجبات، وصناعة دليل عمل مُلْزِم ومُلْتَزَم، وامتلاك الرؤية المستقبلية، والتخطيط الاستراتيجي، وذلك من خلال:

1- مخاطبة الفطرة، وتزكية النفوس، وإعادة البناء الإيماني العقدي والعاطفي

(1) انظر: مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، تحقيق زينب القاروط، ط3، 1987م، ص99.

للإنسان المسلم، وتجديد أمر الدين، والعودة الكاملة على منهاج النبوة، حتى يكون الدين كله لله في الشعائر والشرائع. وبما أن الإيمان لا بد أن يجمع قولاً هو شهادة التوحيد الخالص، يتلو ذلك عمل صالح، في إخلاص ونية صادقة، على منهاج النبوة، فإن الأمة المسلمة عليها تبعًا لذلك كله أن تستهدي بفقه الإسلام الداعي لتجويد العمل وإتقانه، وحسن استثمار الوقت، لصياغة الإنسان.

وليكون ذلك ناجعًا، فإن تأصيل المناهج التربوية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونظم الحكم والإدارة، يبقى أولية الأوليات.

وحماية اللغة العربية وحفظها وهي لغة القرآن عند المسلمين جميعًا، في مواجهة المعاهدات الثقافية التي تدعم بها أوروبا وأمريكا لغاتها، يبقى أوجب الواجبات على الأمة.

وفي مواجهة دعاة التغريب وأعداء التعريب، المفتونين بلغات الغرب والشرق، لا بد من التذكير بأن اللغة هي وسيلة لإيصال المعرفة وتطويرها، ولا يوجد أي ادعاء منطقي يفترض أن المتلقي يمكن أن يستوعب أكثر بغير لغته الأم. ولا ينازع عارف بتاريخ العلوم والمعارف أنه قام على اللغة العربية أساس العلوم والمعارف المتداولة في الغرب.

والخطر الثقافي يكمن في تذويب القيم والثقافات بفعل البث المباشر، إذ أن 65% من الأفلام هي من إنتاج أمريكا وحدها (هوليود)، وطغيان ثقافة الصورة السريعة والمتغلبة على الكلمة المقروءة التي قامت عليها الحضارات السابقة، وقد فاض الكيل حتى استنكرت مؤسسات غربية مظاهر العنف الزائد والإباحية الفاضحة. وهيمنت كذلك لغة واحدة على الشبكة العالمية للمعلومات وعلى المؤتمرات وغيرها، وأصبحت مؤسسات

الغرب الإعلامية هي التي تحدد الموضوعات الأهم في العالم من خلال سياساتها الخبرية.

فالواجب أن نستثمر هذه الوسائل الحديثة للتخاطب وسرعة الاتصال، ونستخدمها للتعريف بقيم الإسلام للشعوب الغربية، التي تجهل حقيقة الإسلام ولا تعرف إلا ما يذكره الإعلام العربي من صور شائنة ومحرفة لقيم الإسلام. وعلينا أن نملأ الخواء الفكري لدى الغرب، والمساعدة في انتشال هذه الأمم إلى رحابة الإيمان.. ولن نتحول من سياسة الدفاع إلى سياسة المبادرة ونشر الدعوة إلا بالإيمان والعلم مع المعرفة بتقنيات المعلومات.

إن الثقافة الأصيلة في صحبة جليلة تصنع الإنسان محطم عروش الطغاة، وانظر إلى ربيعي بن عامر ﵁ وخطابه في بلاط فارس: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1].

2- التخطيط الاستراتيجي، والتأصيل له وللنهضة الحضارية، ونحن أولى أن نعتبر بما ينفقه الغرب على الدراسات المستقبلية، حيث يدخر عشر ميزانيته لذلك، فليتنا ننفق واحدًا في المئة على مثل هذه الدراسات.

ولا بد من اتساق علوم الكون مع معرفة الوحي لإزالة ما حدث من انفصام، والاهتمام بدراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله الكريم وسنة الرسول عليه أفضل السلام وأتم التسليم.

وهكذا إعمال سنن الله، وبعث إرادة الصلاح والإصلاح في الأمة، وإحياء الأشواق إلى دعوة بليغة لسيادة الكون بالعدل والرحمة.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف، 520/3.

3- وتوحيد الله تعالى يقتضي أن توحد الأمة كلمتها: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾(الأنبياء:92)، ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون:52)، ولا بد من إعمال هذه التوجيهات الربانية.

إن من اهتدوا لدين الله الحق من قلب أوروبا ومفكريها يرون في الإسلام سعادة البشرية وإنقاذها، وهذا (غارودي) ثانية يعبر عن ذلك فيقول: (إن الإسلام عند مولده أنقذ العالم من الانحطاط الشامل، فقد كانت الإمبراطوريات التي تسود العالم مفككة منحلة، سواء الفارسية أو الرومانية، أو أرجاء الهند، أو الشمال الأفريقي، أو ممالك (الفيزقوط) بأسبانيا.. ثم جاء القرآن معلنًا بقوة علو الخالق ومجده الذي تفرد به، وباينًا على هذه الوحدانية نوعًا جديدًا من البشرية المتساوية في عبوديتها لله سبحانه.

وبذلك منح الألوف المؤلفة من الناس وعيًا بمدى الكمال الذي يحرزونه عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به.. إن (الربانية) هي الشرف الحقيقي للإنسان، والبعد الذي يجتازه ليؤدي رسالته في الحياة..

والإسلام اليوم قادر على الإسهام بهذا العنصر الغالي لتحصين الإنسانية وحياطة مستقبلها، وحمايتها من المنزلق الذي يوشك أن يبتلعها..

إن المدنية الحديثة قضت على التسامي الروحي، وأيقظت الأثرة الحيوانية، وأقرت نمطًا من الحياة بجنون التنمية وزيادة الإنتاج، ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسيسة[(1)].

والوحدة الإسلامية القائمة على الأخوة الدينية والصلة الروحية شرف وعز

(1) محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ط1، 1415هـ/1995م، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص47.

وانتماء، ونحن أولى بذلك من اغترار اليهود وعلوهم والعزة بالإثم.

ومن ذلك رحمة المسلمين والأقليات، والاهتمام بأمرهم ونصرتهم، وذلك من تكاليف الإيمان: «**مَنْ لَا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**»(1). ويقول الرسول ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(2)، ويقول: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(3).

4- بعث خُلُق الرحمة في الأمة، وهي أمة الرحمة كما وصفها نبيها عليه الصلاة والسلام، وكان هو ﷺ خلقه الرحمة، بوصف الله تعالى له:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ... ﴾(آل عمران:159)، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(التوبة:128)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء:107). وهو شرف عظيم أن خُصَّ عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء وموكبهم بالرحمة العامة.

يقول صاحب التحرير والتنوير: (وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكمًا وعلمًا، وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة مُحَمَّد ﷺ.. ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين).. ويذكر أنها «صيغت بأبلغ نظم، إذ اشتملت هاته الآيات بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس

(1) أخرجه الحاكم والطبراني والخطيب، وضعفه الذهبي وابن الجوزي والألباني.
(2) متفق عليه.
(3) متفق عليه.

كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه»[1].

5- الاستعداد لتحديدات العولمة الرامية لقهر الشعوب وإخضاعها للرأسمالية الجديدة وتزييف الديموقراطية.

وأكثر من الاستعداد لتلك التحديات، أن نوظف كل طاقات العمل والإنتاج للاستفادة القصوى من كل الفرص التي تمنحها هذه (العولمة) في الوسائل والإمكانات، للتمكين للإسلام واستعادة مجد المسلمين على منهاج النبوة.

ولئن كان غيرنا يسعى لصراع الحضارات أو تصادمها، فإن واجبنا هو إعداد القوة اللازمة لتوجيه الصراع إلى مجادلة بالتي هي أحسن، وللمواجهة الحضارية بالحوار وقوة الحجة وخطاب العقل في الإنسان، لنقدم النماذج الحية الفعالة المؤثرة الجامعة بين الوحي والعقل.

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، د.ت.، 165/17.